[٩] الجزيرة العربية
مقدمة

يدير بترول الجزيرة العربية محركاتنا، ويدفئ منازلنا، ويشكل الإسلام الذي ولد في الجزيرة العربية المترامية الأطراف، عاملاً فائق الأهمية في سياستنا الوطنية والدولية، ويمكن أن نعد العروبة التي تدين باسمها للجزيرة العربية مصدراً لعدد كبير من همومنا ومشكلاتنا. ومع ذلك فإننا ما زلنا بعيدين عن شؤون الجزيرة العربية، كأنها لا تخصنا في شيء. لقد انتهى بي الأمر من فرط محاولتي توثيق معلوماتي عن الجزيرة العربية إلى تأليف هذا الكتاب. لاحظت منذ عدد من السنين أن التلفظ باسم« الجزيرة العربية» يستدعى حتماً كلمة «بترول». ويضاف إلى ذلك غالباً صورة البدوي الخالص، رحالة الرمال الذي لا يتعب، أو المحارب الذي لا يشق له غبار، ذي العينين السود. ولكن الجزيرة العربية ليست ذلك فقط.

تشغل الجزيرة العربية، بعيداً عن النظرة القصصية المرتبطة بهذا الفضاء الشاسع، وبهذه المشاهد الصحراوية، وبأولئك السكان الخياليين، ملايين الكيلومترات المربعة، وملايين الكائنات البشرية، من أصحاب الحضارات العظيمة، يصطرع فيها الإنسان مع أقسى أشكال الطبيعة. إن هذا الموئل الكبير للبداوة، الذي مزقته الطرقات وأنابيب البترول يتحول عن مصيره الذي كان له في الماضي. أصيب البدو الرُّحَّل بعدوى تشنجات «الحضارة»، التي تهدم في بضع سنوات هياكل حياة، وطرق عيش ترجع إلى آلاف السنين. إن إحدى أكثر الظواهر المحزنة في عصرنا هي ذلك الزوال المتدرج والسريع للبداوة الحقة، القادمة بغموض من أعماق الأزمنة، والتي هزمتها الحضارة الصناعية والتقنية في بضع سنين. [١٠] لعلها إحدى ميزات نوعنا وعصرنا أن الإنسان الذي يصبح المستقر يتطلع بعين الحسد إلى بقايا البشر الذين يهيمون على وجوههم. يحذر، وهو المستقر في مكان واحد، من أولئك الذين ليس لهم ارتباطات مادية، ولا

أملاك محددة، ولا ملف قياسة إناسية[1] anthropométrique، ولا بطاقة هوية، ولا عنوان؛ يستطيع الشرطي أو جابي الضرائب بفضلها إيجاده على الدوام. مع ذلك، مَنْ عَالِم الاجتماع الذي يجهل دقة قواعد الأعراف البدوية الكبرى وصرامتها ؟ إنها قوانين غير مكتوبة، ولكنها صارمة جداً. وإن عقوبة من يخرج عنها يصل إلى حد النفي خارج العشيرة، والعيش مع الحيوانات، أو الموت في الصحراء. إن الجزيرة العربية أرض صحراوية في معظمها، ولكن إحدى المناطق التي يكثر فيها السكان«صدرت» موجات من سكانها إلى الشرق الأوسط، وحتى المغرب. إنها العربية السعيدة القديمة، أواليمن اليوم، بلاد الجبال الخضراء، والشعب المتحضر الذي كانت تحكمه ملكة سبأ. إنها بلاد تكتنفها الأسرار المجهولة.

هنا نجد سكان الجبال المتحفظين، أجدادهم علموا العالم الجبر، ومنافع القهوة، وهم يحوِّلون بعزيمة شكل الأرض لكي يستخرجوا منها ما يسد رمقهم.

إن عزلتهم، ونضالهم ضد الغزاة في تاريخهم المضطرب، علماهم الصمت والحذر. إن هؤلاء الذين يصح أن نطلق عليهم «سويسريي» الجزيرة العربية[2] لا يتوانون عن الإمساك ببندقيتهم القديمة ليحطموا بها رأس الأجنبي الذي يحشر أنفه في شؤونهم. ولا يوازي ريبتهم إلا إحساسهم بواجب الضيافة، ولا يداني قسوتهم إلا تجردهم. لقد نسيهم التاريخ، وما زالوا كذلك، كأنهم ليسوا من أبناء هذا العصر. ليس من سمات هذا العصر أن يظل على الأرض مكان ينام فيه البشر غير المتحضرين غير خائفين على بترولهم غير المستخدم. إن هذا القرن يتسلق بخفة أسوار مملكة اليمن القديمة الغافية في أحضان الجبال؛ ليحمل إليها مع الكآبة، دولارات، وسيارات، وأطباء، والخبز اليومي أيضاً.

---

(١) علم أقيسة الجنس البشري، وبخاصة في تحقيق شخصية المجرمين(المترجم).

(٢) شبه أمين الريحاني في كتابه ملوك العرب، ١: ٢٣٩-٢٤٠ جبال اليمن بجبال سويسرا فقال:«إن جبال اليمن كجبال سويسرا في وهادها، وأكبر منها في اتساعها، ولكنها غير مأهولة، وتقل فيها الأشجار والمياه » (المترجم).

إن هناك في الجزيرة العربيـة من أدناها إلى أقصاها رجالاً تعجبـوا عندما عرفوا متعجـبين أن من حق الإنسان ألا يموت جوعاً، ولكن هذا يفترض الاستعـباد. قياس أقرن[1]!

إذاً، لقد تغير كل شيء، وكل شيء يتغير في الجـزيرة العربية، بسرعة متزايدة حتى إننا لا نملك الوقت لإدراك ما يحصل.

ويطلق هاري سنت جون فـيلبي [١١] أحد كبـار المختصين في شـؤون الجزيرة العربية التنهدات قـائلاً: « لقد تغيرت العربية الصحـراوية خلال الأربعين سنة الأخيرة التي عرفتها فيها، بل خلال العشر أو الخمس عشرة سنة الأخيرة».

لذلك وددت أن أكتب كتاباً يكون صورة لهـذه العربية الجديدة، وقد كان يمكن لهذا الكـتاب أن يحمل هذا الـعنوان «العربية الجـديدة»، لو لم يكن لدي شـعور بأن هذه«الجـدة» عـابرة، وأنهـا ليسـت إلا موجـة من الأمـواج التي تصـخب في بحـر «الخلود».

لقد كان عليَّ التـزام الحذر، وأنا أحاول القبض على هذه اللحظة القـصيرة من التاريخ، التي لم تحظ إلا بقليل من الاعـتبار في الكون، والتي تكتسب أهميـة كبرى لأننا نعيشـها، كان عليَّ أن أحذر من خطريْن: خطر الانزلاق وراء الـغريب السهل، وخطر إيراد أحداث مشكوك فيها. ولم يكن من السهل اتخاذ موقف وسط بين حرارة التخـييل الروائي، وبرودة السـرد الجاف الأحـداث؛ ولا أزعم أنني استطعت تحـقيق ذلك؛ ولكنني حاولت.

إن ضجيج الأحداث المعاصرة غير مناسب للقيام بعمل هادئ ومفيد. لقد أردت تقديم كتاب يحمل ذوق العصر مـا أمكنني ذلك، دون أن أستخدم معلومات مشكوك فيها.

(١) ترجمنا Dilemme بـ قيـاس أقرن؛ والمقصود بـه قياس ذو حدين يُكْره الخـصم على اختيـار واحد من بديلين، كلاهما في غير مصلحته (المترجم).

وعلى الرغم من البحوث الطويلة التي قمت بها، ومن مقابلة أشباه معلوماتي بنظائرها، فإنه سيكون من التبجح المفرط أن أزعم أن هذا الكتاب خالٍ من النواقص والأخطاء. ولكنني مع ذلك آمل أن يكون في مستوى المساعدات العظيمة التي توافرت له.

أود أن أختم هذه المقدمة بالتعبير عن شكري لكل أولئك الذين ساعدوني، وزودوني بالمعلومات منذ سنوات عديدة، وأخص أولئك الذين شجعوني منذ بدأت أبحاثي حول بلدان الشرق الأوسط. وإن ما يسعدني أنهم كثر، ولن يكون بالإمكان ذكرهم جميعاً؛ لذلك لن أُسمي أحداً منهم. بل أكتفي بتسجيل اعترافي بالفضل لمركز الدراسات العليا للإدارة الإسلامية، ولمركز دراسات السياسة الخارجية، وللمعهد الملكي للشؤون الدولية، وأخص بالشكر العظيم مكاتب خدمات التوثيق الفرنسي الذين كانوا جميعاً رائعين كل الروعة.

كنت، وأنا أكتب هذا الكتاب، أفكر غالباً بصديقي بيير .B الحاكم المدني في الجزائر، لأن أقل ما أدين له به هو أن هذا الكتاب، لولا مساعدته، لم يكن له على الأرجح [١٢] أن يرى النور. ويسرني أن أهدي عملي، عَبْر ذلك الرجل، إلى كل أولئك الذين يعتقدون بمستقبل أفضل للعلاقات الفرنسية-الإسلامية، أفعل ذلك، وأنا أدعو ألا يهدم السياسيون ما يبنيه المفكرون يوماً بعد يوم.

جان-جاك بيريبي

محاضر في مركز الدراسات العليا

في الإدارة الإسلامية